4 ـ عودة القدس إلى الصليبيين، ثم تحريرها منهم ثانية (من عام 626هـ = 1229م حتى عام 642 هـ = 1244م):

بعد وفاة صلاح الدين، وفي ربيع الآخر من عام 626هـ (1229م) انتقلت القدس إلى الصليبيين من جديد، ذلك أنه، عندما توفي الملك المعظم، صاحب دمشق والقدس (عام 624هـ = 1227م) خلفه، في حكم البلاد، ابنه الناصر داود، وكان ضعيفاً وقليل الدراية في شؤون الحكم، فانتهز عمه الملك الكامل، صاحب مصر، هذه الفرصة، وانقض على القدس ونابلس واحتلهما، مما دفع بأخيه الملك الأشرف، صاحب الجزيرة، إلى التدخل، وتم بين الأخوين «الكامل والأشرف» اجتماع في «تل العجول» انتهى باقتسامهما للبلاد التي كان حكمها قد آل إلى ابن أخيهما الملك الناصر داود الذي آثر الفرار إلى دمشق والتحصّن بها، فتبعته جيوشهما وحاصرت دمشق (مطلع عام 626هـ = أواخر عام 1228م). واغتنم قائد الحملة الصليبية السادسة الأمبراطور فردريك الثاني، ملك صقلية (1197م ـ 1250م) وأمبراطور المانيا (1220م ـ 1250م)، فرصة الخلاف، بين الأخوة الأيوبيين (ورثة القائد صلاح الدين)، وكان في يافا، يتلقى، بين الفينة والأخرى، وسطاء للصلح مع الملك الكامل، فتشدّد في شروطه لذلك، مصرّاً

صفد (1188م) ثم توجه نحو طرطوس، مجاوزاً قلعة شقيف أرنون وحصن الأكراد وقلعة طرابلس، وسقطت طرطوس في العام نفسه (1188م) ثم سقط بعدها حصن المرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون (عام 584هـ/ 1188م) ثم بكاس الشغر فبرزية وسرمين فدربساك والبغراس وارتاح وحارم في ضواحي انطاكية (584هـ/ 1188م) واحتلت فرقة من جيشه حصن كوكب جنوب بحيرة طبرية (عام 584هـ/ 1189م). وهكذا استطاع صلاح الدين أن يحقق ما بين عامي 1187 و1190م انتصارات عسكرية باهرة، حيث لم يبق للصليبيين، بعدها، من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ومن امارة طرابلس سوى العاصمة طرابلس. ومن إمارة أنطاكية سوى العاصمة أنطاكية وثغر السويدية وحصن المرقب (انظر الخارطة). (رنسيمان، ج 2: 760 ـ 761).

وفي 22 شعبان عام 588هـ (2 أيلول/ سبتمبر 1992م)، عقد الصلح النهائي في الرملة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا، على أن يحتفظ الصليبيون بالشريط الساحلي من صور إلى يافا وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، وأن يكون الساحل الفلسطيني من عسقلان إلى يافا لصلاح الدين. ولم يمهل القدر صلاح الدين بعد ذلك، إذ توفي ليلة الأربعاء في 27 صفر عام 589هـ الموافق للرابع من آذار عام 1193م، عن عمر يناهز السابعة والخمسين. (رنسيمان، ج 3: 138 ـ 141).